الفصل الثامن عشر

الخليفة المتوكل يكره ابنه المنتصر إلى درجة لا تصدق !
والمنتصر يشترك فى قتل أبيه !

مهما نقرأ فى كتب التاريخ فإننا لا نجد وصفاً صحيحاً للدولة العباسية بعد المأمون ؛ فإن الإدارة ساءت إلى درجة لا يمكن أن يقال معها : إن هناك دولة ، حقًا كان هناك خليفة . ولكن هذا الخليفة كان قد فقد خصائص الخلفاء حتى يصعب أن نقول : إن دولة الخلافة كانت مستمرة أو موجودة فى أيام الواثق الذى خلف المعتصم الذى جاء بعد المأمون ، وكان الواثق رجلاً غبياً حقاً ، لا يعرف شيئاً عن إدارة الدولة ، وإنما هو كان رئيس جماعة من اللصوص هم كبار موظفى الدولة ، ونحن نستطيع أن نقول : إنهم كانوا بالفعل لصوصاً ؛ لأن الحد الفاصل بين السرقة والأمانة زال فعلاً ، فقد كان مال الدولة كثيراً ، ولكنه لم يكن كثيراً حقاً على دولة ؛ لأنه كان لا يكفى لإقامة مشروع كبير أو مجد عظيم ، ولكنه كان كثيراً على الأشخاص الذين كانوا يتولون الدولة . والحقيقة أنك لا تستطيع أن تقول : إنه كان هناك مال دولة .

بل كان الناس ـ صغار الناس أقصد ـ يدفعون ما عليهم ، ويأخذه جباة ضرائب يأخذون منه نصيباً لأنفسهم ، ويعطون الباقى لمن فوقهم ، وهكذا حتى لا يصل إلى الخليفة إلا سدس المال المجموع ، والباقى يتوزع بين الموظفين ، فهم رؤساء وهم لصوص فى الوقت نفسه ، والخط الفاصل بين اللص ورجل الدولة فى كل منهما غير واضح . ويتجلى هذا فى أيام المتوكل الذى جاء بعد الواثق . والمتوكل اسمه جعفر ، وهو ابن المعتصم، وأمه أم ولد يقال له شجاع ، وقد تولى يوم الأربعاء ٢٤ من ذى الحجة سنة ٢٣٢هـ / يوليو ٧١٧م ، وكان رجلاً عاقلاً ، وكان يمكن أن يكون خليفة ممتازاً ، ولكنه كان ينكر سلطان الترك على الدولة ، والحق أن الترك كانوا يتسلطون على كل أهل الدولة ، وفى مقدمتهم الخليفة ، وكان الترك قد اعتادوا سيادة الدولة حتى أصبحوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم أصحاب الدولة الحقيقيون ، وأن العرب وغيرهم من أجناس الدولة الإسلامية كانوا رعايا لهم .

وكان الخلفاء ـ لكى يسيطروا على الدولة فعلاً ـ قد استكثروا من أجناس غريبة عن العرب واتخذوا منها جنداً ، ومثال ذلك أننا نقرأ كثيراً عن المغاربة ، وأنا شخصيّا أعتقد أننى أعرف تاريخ المغرب الإسلامى معرفة لا بأس بها ، ولكنى لا أعرف من هم المغاربة ، وهنا وغاية ما أستطيع قوله إنهم بربر كانوا يهاجرون إلى العراق ، ويدخلون جيوش دولة الخلافة ،

ويعتبرون أنفسهم جندها ، وكانوا يتقاضون رواتب كبيرة ، ولكن لم تكن لهم طموحات سياسية ، فكانوا يظلون جنوداً ، ويخرج أولادهم من الجيش ويتحولون إلى عراقيين ، ولم يكن الترك جنساً واحداً بل أجناساً شتى ، كان يدخل فيهم الإيرانيون ، والطبريون ، وأهل طخارستان ـ وهم الأفغانيون اليوم ـ والأرمن المسلمون ، وأهل القوقاز ـ وهم المسمون الغز ـ ولكنهم كانوا جميعاً يتكلمون لغة واحدة ، ويرون أن واجبهم الأساسى هو إخراج العرب من جند الدولة ، وهذه هى نتيجة سياسة آل عباس ، فقد كانوا أنصاف عرب ، فمعظمهم أبناء أعجميات ، وأشكالهم غير عربية وإن كانوا يشعرون أنهم عرب، وإليك صفحة من تاريخ الطبرى تشعر وأنت تقرؤها أن الخليفة المتوكل عربى ، ولكنه لا يحب العرب ، ولا يريد أن يراهم فى رياسة الدولة ، قال الطبرى (٩/ ٢٢٢) فى تفاصيل مقتل الخليفة المتوكل : (ذكر لى أن سبب ذلك أنه كان ـ المتوكل ـ أمر بإنشاء الكتب بقبض ضياع وصيف بأصبهات والجبل وإقطاعها الفتح بن خاقان) فكتب الكتب وصارت إلى الخاتم على أن ينفذ يوم الخميس لخمس خلون من شعبان (سنة ٢٤٧هـ / أكتوبر ٨٦١م) فبلغ ذلك وصيفاً واستقر عنده الذى أمر به فى أمره ، وكان المتوكل قد أراد أن يصلى بالناس يوم الجمعة فى شهر رمضان فى آخر جمعة منه ، وكان قد شاع فى الناس فى أول رمضان أن أمير المؤمنين يريد أن يقضى عليهم ، فاجتمع الناس

لذلك واحتشدوا ، وخرج بنو هاشم من بغداد لرفع القصص وكلامه إذا ركب ، فقد كان يوم الجمعة أراد الركوب للصلاة ، فقال له عبيد الله بن يحيى والفتح بن خاقان : يا أمير المؤمنين ، إن الناس قد اجتمعوا وكثروا من أهل بيتك وغيرهم ، وبعض يتظلم ، وبعض طالب حاجة ، وأمير المؤمنين يشكو ضيق الصدر ووعكة ، وإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بعض ولاة العهود بالصلاة ..) فهل هذا خبر يستحق أن يرويه الطبرى ؟ يجوز إذا كان المراد بيان خضوع الخليفة لكل ما تقوله أمة الترك ، المهم أننا نرى هنا أن الأتراك يريدون بأى طريقة أن يحولوا بين الخليفة وبين الناس ، ولكن بقية رجال الدولة لم يكونوا أفضل من الترك ، ولم يكونوا كلهم عرباً ، بل كان فيهم أكراد وأرمن وروم ، وكانوا ـ كما قلنا ـ أنصاف رجال دولة وأنصاف لصوص .

ومن حسنات المتوكل أنه أوقف بدعة الكلام فى القرآن ، قال اليعقوبى (٢ / ٤٨٤ ـ ٤٨٥) : ونهى المتوكل الناس عن الكلام فى القرآن من أهل البلدان ،و من أخذ فى خلافة الواثق (أى من قبض عليه) فخلاهم جميعاً وكساهم ، وكتب إلى الآفاق كتباً نهى عن المناظرة والجدل ، فأمسك الناس ،وبهذا انتهت هذه المعركة بانتصار الفقهاء ، ولم يكن ذلك ليهم المتوكل كثيراً ؛ لأنه فى الواقع كان يكره الترك أكثر مما يكره الفقهاء ، وكان يريد أن

يقضى عليهم ، فاوقف معركة ليبدأ معركة أخرى كان فيها حتفه .

ولم يحسن المتوكل القيام بمعركته مع الأتراك لأسباب كثيرة ، أهمها سببان : الأول أنه كان صغير السن جداً ؛ إذ كانت سنه لا تجاوز الثالثة والعشرين ، فكان فى الحقيقة صبياً قليل التجربة . والسبب الثانى أنه لم يكن معه رجال يقومون بالمعركة ، فقام بها وحده وانهزم وقتل .

وبعد أن تولى بسنوات قلائل احتاج إلى أموال ، ولم تكن هناك وسيلة للحصول على أموال إلا بالقبض على موظفين كبار واستخراج ما عندهم ، ووقعت عينا المتوكل على اثنين أخوين من كبار الموظفين هما عمر بن فرج الرخجى وأخوه محمد . والاثنان كانا محبوسين بسبب السرقة ، ولكن محمد بن فرج الرخجى كان والى مصر قبل حبسه ، فوجه المتوكل كتاباً إلى مصر بالقبض عليه . وقبض فى الوقت نفسه على أخيه عمر ، واستخرجت منهما أموال كثيرة ، ثم احتاج المتوكل إلى رجلين : واحد لديوان الخراج ، والثانى لديوان الضياع . فلم يجد غير هذين اللصين فولاهما ، وليس هذا بغريب ؛ لأنهما وإن يكونا لصين فإنهما كانا يعرفان كيف يستخرجان المال من الناس .

فعفا عنهما وولاهما . وفى السنة نفسها وهى ٢٣٤هـ / ٨٤٨م قبض على موظف يسمى أحمد بن خالد المعروف بابى

الوزير ، واستخرج منه أموالاً كثيرة بعد التعذيب ، ثم عفا عنه . ولم يرض المتوكل عن أحمد وعمر الرخجيين ، فعزلهما وولى مكانهما يحيى بن خاقان وموسى بن عبد الملك بن هشام ، وكانا هما الآخران محبوسين فى أموال فعفا عنهما ، وولاهما ديوان الخراج وديوان الضياع .

وكان المتوكل يفكر فى وسيلة للإيقاع بالأتراك .

ولكنه شغل عن ذلك مؤقتاً بما كان من الكراهة بينه وبين ابنه المنتصر ، وكان ولى عهده ، وكان اسمه محمدا ، وله ابنان آخران هما أبو عبد الله المعتز بالله ، وإبراهيم المؤيد بالله ، وقد أقام المتوكل لولاية العهد لأبنائه الثلاثة حفلاً عظيماً أنفق فيه أموالاً جمة . ويبدو أن الترك أحسوا بما كان المتوكل يدبر لهم ، فتقربوا إلى ابنه وولى عهده المنتصر ، ومضوا يدبرون معه القضاء على المتوكل . ولم أجد فى النصوص ما يمكن أن أعرف به سبب الخصومة الشديدة التى كانت بين المتوكل وابنه المنتصر ، ولكن الأخبار هنا مضطربة جداً ومختلط بعضها ببعض حتى ليصعب عليك أن تجد وجه الحق فى أى شىء ، والشىء الوحيد الثابت هو أن المتوكل كان وثيق الإيمان بالإسلام ؛ فقد كان دائم الغزو للروم ، وكان لا يكف عن التنبيه على أن يلبس النصارى لبساً خاصّاً يميزهم حتى لا يختلط أمرهم بالمسلمين ، وكان يصر - وأبوه - على أن يلبسوا الملابس

العسلية اللون وألا يركبوا الخيل ، ويدفعوا مالا كثيراً ، وقد أسلم الكثيرون منهم لتفادى هذا العذاب . كذلك غضب المتوكل غضباً شديداً على ناس أخطئوا فى حق أبى بكر وعمر ونفر من الصحابة . وقد اشتهر بذلك رجل يسمى عيسى بن محمد بن جعفر بن محمد بن عاصم صاحب الحانات . وجاء فى كتاب المعتصم فى جريمة هذا الرجل وأمثاله : « وما شهد به الشهود من شتم أصحاب رسول الله ﷺ ولعنهم وإكفارهم ورميهم بالكبائر ونسبتهم إلى النفاق وغير ذلك ، مما خرج به إلى المعاندة لله ولرسوله ﷺ وتثبتك فى أمر أولئك الشهود وما شهدوا به ، وما صح عنكم من عدالة من عدل منهم ووضح لك من الأمر فيما شهدوا به ، وشرحك ذلك فى رقعة درج كتابك ، فعرضت على أمير المؤمنين ـ أعزه الله ـ فأمر بكتاب إلى أبى العباس محمد بن طاهر مولى أمير المؤمنين ـ أبقاه الله ـ بما قد نفذ إليه مما يشبه ما عنده ـ أبقاه الله فى نصرة دين الله وإحياء سنته والانتقام ممن ألحد فيه ـ وأن يضرب الرجل حداً فى مجمع الناس حد الشتم خمسمائة ، وخمسمائة سوط بعد الحد للأمور العظام التى اجترأ عليها ، فإن مات ألقى فى الماء من غير صلاة ؛ ليكون ذلك ناهياً لكل ملحد فى الدين خارج من جماعة المسلمين ، وأعلمتك ذلك لتعرفه إن شاء الله » (الطبرى ٩ / ٢٠١) .

ولم أعرف قط سبب كراهة المتوكل لابنه المنتصر إلى ذلك الحد الذى لا يصدق فى الذى نقرؤه فى المراجع ، ولقد قرأت فى النصوص كثيراً من أخبار الكراهية بين الآباء والأبناء ، ولكن سآتيك الآن بنص من الطبرى؛ لترى شيئاً لا يصدق أبداً (الطبرى ٩ / ٢٢٥) : « فذكر عند هارون بن محمد بن سليمان الهاشمى أنه كان حدثنى بعض من كان فى الستارة من النساء أنه التفت إلى الفتح فقال : برئت من الله ومن قرابتى من رسول الله ﷺ إن لم تلطمه (يعنى المنتصر) فقام الفتح ولطمه مرتين يمر بيده على قفاه ، ثم قال المتوكل لمن حضر : اشهدوا جميعاً أننى خلصت المستعجل (يعنى المنتصر) ثم التفت إليه وقال : سميتك المنتصر ، فسماك الناس لحمقك المنتظر ، ثم صرت الآن المستعجل ، فقال المنتصر : يا أمير المؤمنين ، لو أمرت الآن بضرب عنقى كان أسهل على مما تفعله بى ، فقال : اسقوه ، ثم أمر بالعشاء فأحضر ، وذلك فى جوف الليل ، فخرج المنتصر من عنده وأمر غلام أحمد بن يحيى أن يلحقه ، فلما خرج وضعت المائدة بين يدى المتوكل ، وجعل يأكلها ويلقم وهو سكران . وذكر عن ابن الحفص أن المنتصر لما خرج إلى حجرته أخذ بيد زرافة فقال له : امض معى ، فقال : يا سيدى ، إن أمير المؤمنين لم يقم ، فقال : إن أمير المؤمنين أخذه النبيذ ، والساعة يخرج بغا والندماء ، وقد أحببت أن تجعل أمر ولدك إلى ؛ فإن أونامش سألنى أن أزوج ابنه من ابنتك ، وابنتك من ابنه ، فقال له زرافة:

نحن عبيدك يـا سيدى ، فمرنا بأمرك ، وأخذ المنـتصر وانصرف به معه . قـال : وكان زرافة قد قال لى قـبل ذلك : ارفق بنفسك ؛ فـإن أميـر المؤمنين سكران والساعـة يضيق ، وقـد دعانى مـرة وسألنى أن أسألك أن تصيـر إليه ، فنصير جميـعاً إلى حجرته . قال : فقلت له : أنا أتقدمك إليه ، قال : ومضى زرافة مع المنتصر إلى حجرته » .

وبعد ذلك بوقت قـليل جداً . وفى نفس الليلة قـتل المتوكل . قتله الأتراك ، والحقـيقة أن هذا التعيس الذى كـان يدبر القضاء على الأتراك تلك الليلة شـرب أربعة عشر رطلاً من الخـمر . ولا أدرى مـاذا يكون الرطل ، ولكن حـتى لو قلنا : إنه كـاس ، فـإن رجلاً يدبـر قتل الأتراك جمـيعـاً والتخلص منهم ثم يـشرب هذا القدر من الخمر لا يمكن أن يكسب . وأنا أستنكر هنا من الطبرى أن يذكر أن أمـير المؤمنـين المتوكل شـرب أربعة عشـر رطلاً من الخمر ـ فى نفس الليلة التـى كان ينبغى أن يكون فيها مـجتمع الرأى ، وأظن أن هذا يفـسـر لنا لماذا اعـتـدى المتـوكل على ابنه المنتصـر على الصورة المؤسفـة التى رأيناها ، ولا شك كذلك فى أن المنتصر قد اشترك مع الأتراك فى تدبير قتل أبيه . وحتى ولو لم يشـترك فـمـا نظن أن النهـاية التى انتـهى بها المـتوكـل قـد أحزنته .

على أى حال هذه صورة محزنة جداً : أن يصير أمر الخلافة إلى ناس مثل المتوكل والمنتصـر . وهذا يؤكد مرة أخرى ما قلناه

من أن الخلافة كان ينبغى أن تشرع وتقنن وتنظم ؛ حتى لا تصير إلى الصورة المحزنة التى رأيناها ؛ لأن الموضوع هنا ليس موضوع من يتولى الخلافة وماذا يفعل بها ، ولكن الخليفة كان سيد هذه الدولة وبيده مصائر الناس . ومصائر الناس لا ينبغى أن تصير إلى ما رأيناه .

ولكن الناس كانوا قد يئسوا من الخلافة من زمن بعيد ، وكان كل إنسان قد رتب أموره ؛ ليسير بحياته وحياة أسرته دون أكتراث للخليفة وما يمكن أن يعمله ، وأظن أنه لا ضير علينا فى أن نقول ذلك ؛ لأننا فى الحقيقة أمام دولة كبرى هى دولة الإسلام ، ولا يجوز أن تدار دولة الإسلام على هذا النحو غير المسئول . وقد قلت ذلك أكثر من مرة . ومن الغريب أن أحداً من مشرعينا قبل العصر الحديث لم يفكر فيه .

وأوربا نفسها كانت كذلك ، ولكنها بدأت تتغير من القرن السابع عشر ، فبدا الناس ينتبهون إلى أن العقل هو أساس حياة البشر ، وأن كل شىء لابد أن يخضع للعقل ، وشيئاً فشيئاً أخذ العقل يسيطر على حياة البشر فى الغرب ، فاخذت حياة البشر تتغير ، ودخلت أوربا فى العصر الحديث بتاثير العقل ، والإسلام نفسه دين عقل ، وما كان المسلمون ليستطيعوا أن يتقدموا دون استخدام العقل ، وقد نبههم إلى ذلك رسول الله ﷺ ثم أبو بكر ثم عمر ، وتوقف العقل فى أيام عثمان ، فوقع الشر

فى حياة المسلمين ، وقد رأينا أحوالنا فى العصور الوسطى كيف كانت .

وبطبيعة الحال لا نستطيع أن نتتبع تاريخ المسلمين سنة بعد أخرى ، إنما نحن نضرب أمثلة فحسب . والغريب فى خبر موت المتوكل الذى قصصنا قصته أن المتوكل الذى كان يدبر أمر القضاء على الأتراك كان لا يخطر بباله أن الأتراك قد يعلمون بما يدبر وقد يسبقون إلى قتله . هذا هو الذى حدث . إليك بقية الخبر ـ كما رواها الطبرى ـ لترى غفلة هذا الرجل السكران الذى غاب عنه أن الآخرين لهم عقول أيضاً ، وأنه كما كان يفكر فى القضاء عليهم فهم يفكرون فى قتله ، قال الطبرى (٩ / ٣٢٧) : فذكر عثعث أن أبا أحمد بن المتوكل أخا المؤيد لأمه كان معهم فى المجلس ، فقام إلى الخلاء ، وقد كان بغا الشرابى أغلق الأبواب كلها غير باب الشط ، ومنه دخل الرجال الذين عينوا لقتله ، فبصر بهم أبو أحمد فصاح بهم : ما هذا يا سفل ؟ وإذا بسيوف مستلة ، قال : وقد كان تقدم النفر الذين تولوا قتله بغلون التركى وباغر وموسى بن بغا وهارون بن صوارتكين وبغا الشرابى ، ولما سمع المتوكل صوت أبى أحمد رفع رأسه فرأى القوم وقال : يابغا ، ما هذا ؟ هؤلاء رجال النوبة التى تبيت على باب سيدى أمير المؤمنين ، فرجع القوم إلى ورائهم عند كلام المتوكل لبغا ، ولم يكن واجن وأصحابه وولد وصيف

قد حضروا معهم بعد . قال عثعث : فسمعت بغا يقول لهم : يا سفل . أنتم مقتولون لا محالة ، فموتوا كراماً ، فرجع القوم إلى المجلس ، فابتدره بغلون فضربه ضربة على كتفه وأذنه فَقَدَّهُ ، فقال : مهلاً ، قطع الله يدك ! ثم قام وأراد الوثوب به ، فاستقبله بضرب يده بالسيف فأبانها ، وترك باغر ، فقال الفتح : ويلكم ! أمير المؤمنين ، فقال بغا : يا أحمق لا تسكت ، فرمى الفتح بنفسه على المتوكل ، فبجعه هارون بسيفه فصاح : الموت ! واعتوره هارون وموسى ابن بغا بأسيافهما فقتلاه وقطعاه ، وأصابت عثعث ضربة فى رأسه ، وكان مع المتوكل خادم صغير فدخل تحت الستارة فنجا وتهارب الباقون .

وهذه صورة بشعة لقتل خليفة ما كان يستحق أن يكون خليفة ، ولكننا رأينا أنه صار ، فكانت خاتمته ما رأينا ، وقد رأينا كذلك كيف كان يعامل ابنه المنتصر معاملة آسفة فعلاً ، ولكن هذه صور نجد لها أمثلة كثيرة فى كتب التاريخ عندنا .

★★★